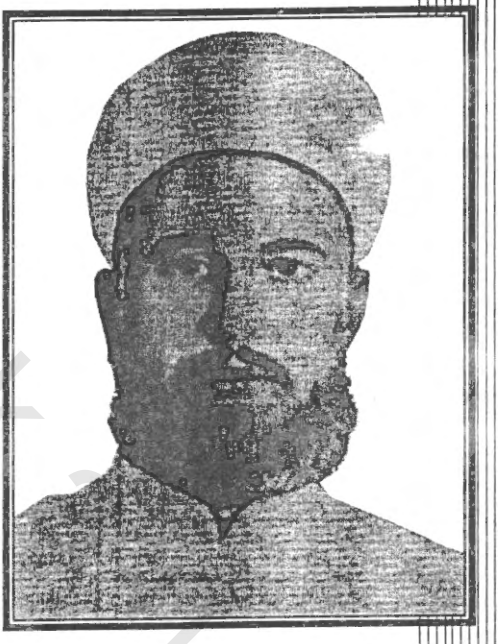

عـــز الـــدين القســـام
(١٨٨٢-١٩٣٥م)

وجع في قلب إسرائيل

obeikandl.com

اسمه يثير الرعب والفزع، تحرك أتباعه تصاحبه حالة من إعلان الطوارئ، في صفوف الجيش الإسرائيلي، كتائبه هي أخشى ما يخشاه قادة اليهود، رغم أنه قد استشهد منذ علم ١٩٣٥م. فهو قائد أول ثورة مسلحة ضد البريطانيين واليهود في فلسطين. وصاحب أول تنظيم جهادي يخوض الحرب دفاعا عن عروبة فلسطين، كان خير مثال لرجل الدين المجاهد والمعلم، وباعث الوطنية واهم في النفوس الأبية. يظل اسمه علماً من أعلام النضال العربي في العصر الحديث. عندما يُذكر اسمه تتزلزل الأرض تحت أقدام اليهود.

هو الشهيد المناضل «عزالدين القسام»، الذي تزرع كتائبه الخوف وتبث الرعب داخل إسرائيل بعملياتها الاستشهادية التي ينفذها تلاميذ مدرسته البطولية «كتائب عزالدين القسام».

وهكذا شأن الرجال الأبطال الذين عاهدوا الله على التضحية والفداء، فمنهم من قضى نحبه شهيدا في سبيل الله والوطن، ومنهم من ينتظر.

شيخ القساميين:

هو شيخ القسامين، ومؤسس تنظيمهم، وقائده، ومن أوائل شهدائه، وُلِدَ سنة ١٨٨٢م في بلدة جُبلة السورية، جنوب اللاذقية، من أسرة متوسطة الحال، كان أبوه صاحب كُتاب يُعلم فيه الأطفال أصول القراءة، وحفظ القرآن. تلقى «عزالدين القسام» دراسته الابتدائية في بلدته، ونشأ على هدى الدين، والصلاح والفضائل. ذهب وهو في الرابعة عشرة إلى القاهرة للدراسة في الأزهر الشريف،برفقة أخيه فخرالدين.

أمضى القسام في الأزهر سنوات، أخذ فيها العلم على أبرز أئمته، وفيهم «الشيخ محمد عبده»، نال بعدها الشهادة الأهلية، وقد تركت سنوات الدراسة في الأزهر، في نفسه آثاراً بعيدة، فقد كانت مصر تعيش في حالة غليان وطني في أثناء هذه الفترة، التي أعقبت الاحتلال الإنجليزي وهزيمة العرابيين، شهدت هذه الفترة أيضا بروز

العديد من الزعماء الوطنيين، الذين حملوا الدعوات الإصلاحية التي كانت تؤكد أن من أهم عوامل وأسباب استقلال وحفظ الأمة، الاتحاد والشورى، وعدم الاعتماد على الأجنبي.

بوادر ثورة:

عاد «القسام» إلى بلدته، وهو يحمل بين جوانحه بوادر وبذور ثورة، ووعي وإيمان بضرورة اتحاد والتقاء كل الشعب حول هدف واحد، وهو الاستقلال والتحرر، وبناء الوطن على أساس من القيم والأخلاق والمبادئ الوطنية. آمن «عزالدين القسام» أن رجل الدين ليس معلم الفروض والعبادات فحسب، بل معلم الإباء والوطنية وعزة النفس. كان دور رجل الدين عنده، دفع المؤمنين إلى رفض التواكل والاستكانة، وعدم عزلهم عن قضايا شعبهم.

كان أول تجسيد لمفهومه عن رجل الدين المجاهد العملي، حين قاد مظاهرة طافت شوارع بلدته، تأييداً للعرب الليبيين، يوم هاجم الإيطاليون ليبيا. وقد دعا «القسام» الناس إلى التطوع لقتال الإيطاليين، وكون قوة من المتطوعين وصلت إلى ٢٥٠ متطوعاً، وقام بحملة جمع تبرعات لتأمين ما يلزمهم ويلزم أسرهم، لكن السلطات العثمانية لم تسمح لهم بالسفر لنصرة إخوانهم الليبيين.

كان يكره الاستعمار. لذا رفع راية المقاومة ضد فرنسا في الساحل الشمالي لسورية، وكان في طليعة المجاهدين الذين حملوا السلاح في ثورة جبال صهيون (١٩١٩ - ١٩٢٠م) مع المرحوم «عمر البيطار».

ترك قريته، وباع كل ما يملك، وانتقل مع أسرته إلى قرية الحفة ذات الموقع الحصين، في سبيل الثورة. التي كانت بالنسبة له مدرسة عملية صقلته، وعلمته الكثير من الدروس.

وللدور الخطير الذي قام به القسام في الثورة ضد الفرنسيين، حكموا عليه بالإعدام، لما عرفوا من قوة نفوذه، وتأثيره على الناس.

مرحلة جديدة:

بعد إخفاق الثورة في جبال صهيون،التجأ «القسام» مع ستة من رفاقه إلى فلسطين، حيث وصل إلى حيفا أواخر صيف ١٩٢١م، ثم لحقت به أسرته بعد حين، وكان وصوله إلى فلسطين إيذانا ببداية مرحلة جديدة ومجيدة في تاريخ النضال الفلسطيني ضد قوات الانتداب البريطاني وقطعان اليهود التى جاءت تغتصب الأرض وتقيم وطنها القومي الذي وعدهم به بلفور وزير خارجية بريطانيا على حساب عرب فلسطين.

استقرت الأمور له ولأسرته في حيفا،وبدأت حياة القسام النضالية منذ ١٩٢٢م، عمل مدرسا في المدرسة الإسلامية بحيفا، وكان خطيبًا، وإماماً لجامع الاستقلال فيها، وراح يزرع روح الجهاد والكفاح في النفوس، مركزاً في دروسه الدينية على ضرورة التآخي والتلاحم والتناصر بين الناس من أجل حماية الوطن.

آمن «القسام» مستفيداً من دروس النضال التي عاشها، أن الثورة المصلحة هي وحدها القادرة على إنهاء الانتداب، والحيلولة دون قيام دولة صهيونية في فلسطين. ومن الطبيعي أن تحتاج الثورة المسلحة إلى تخطيط سياسي وعسكري، وإلى تعبئة الجماهير نفسيا لتأييد الثورة والاشتراك فيها، وإلى تنظيم سري ثوري يُربي فيه المقاتلون عسكرياً وسياسياً.

دقة التنظيم:

اتصف «الشيخ عزالدين» بقدرة فائقة على التنظيم واختيار الأعضاء والقيادة،وسُبل الإمداد والتسليح، وكان يدقق في اختيار الأعضاء، ويضع المرشح الذي يتوسم فيه الخير والاستعداد زمنا تحت المراقبة، إلى حين دعوته للعمل في التنظيم من أجل إنقاذ فلسطين، وكان كل ذلك يتم في إطار من السرية الكاملة.

ساعد «القسام» عمله مدرساً وخطيباً وإماماً ومأذونا شرعياً، على معرفة الناس، وسبل إقناعهم والتأثير فيهم. وقد ربط «القسام» الجانب النضالي بالجانب

الاجتماعي، فكان يهتم بتحسين أحوال الفقراء ومساعدتهم، ويسعى إلى مكافحة الأمية بينهم، إيمانا منه، بأن ذلك يُعمق الوعي بين الجماهير، ويزيدها إيمانا بالثورة، ويشحذ عزمها للكفاح المسلح، وحيث كان يقيم العمال وفقراء الفلاحين الذين طُردوا من أراضيهم، ولجؤوا إلى حيفا طلبا للعمل راح «القسام» يؤلف القلوب من حوله.

وكان «القسام» في جميع مراحل عمله من الإقناع إلى ضم المناضلين إلى جماعته يستعين بالكتمان على تحقيق هدفه، فكان لا يبوح بالسر الذي يحمله، وهو الدعوة إلى الثورة لمنع إقامة وطن قومي صهيوني في أرض فلسطين،إلا لأشخاص قلائل بعد أن يدرس نفسيتهم ويمتحن إخلاصهم لمدة قد تطول عدة سنوات.

وكان ينتقي أصحابه من أهل الدين والعقيدة الصحيحة،ويقوم بتدريبهم في رحلات ليلية، كما كانوا يقومون بتحركات استطلاعية يتمرنون في أثنائها على إصابة الهدف.

بسرعة مذهلة أخذت نواة الحركة الثورية تتألف حول «القسام» وتتسع، وازداد عدد المنضمين إلى جهازه، الذي أداره بمهارة وحكمة ولباقة، وشكل «القسام» من أفراد المنظمة حلقات صغيرة،تتألف الوحدة منها من رقيب وخمسة أفراد.

مهمة صعبة:

كانت مهمة تمويل حركة «القسام» ومدها بالسلاح صعبة للغاية،بسبب الأحوال السائدة، وسريان مفعول أنظمة الطوارىء والقوانين الاستثنائية، وكانت مصادر التمويل مع ذلك متعددة وإن كانت تتم بشكل سري، منها: تبرعات الأفراد أعضاء التنظيم، تبرعات من أبناء حيفا كان يتولى جمعها سراً بعض أعضاء الحركة والرجال الوطنيين. وتبرعات من الجمعية الإسلامية في حيفا تسجل في ميزانيتها تحت بند مساعدة المعوزين من المسلمين.

وكان الحصول على السلاح أكثر صعوبة من الحصول على المال، وقد قدم كبار

قادة المنظمة بعض البنادق والمسدسات القديمة،إضافة إلى الأسلحة التي هربها إلى حيفا بعض أنصار «القسام» ومريديه في جبلة واللاذقية.

عندما قرر «القسام» القيام بأعمال مسلحة ضد الأعداء، لم يكن الشعب، أو الإنجليز، أو اليهود يعلمون شيئا عن المنظمة القسامية، فيما كان الشيخ القسام يمارس وظائفه وأعماله في حيفا ويظهر أمام الجميع. قام القساميون وتشكيلات الشباب المرتبطة بهم فور صدور قرار «القسام»، بسلسلة من الأعمال ضد المستعمرات الصهيونية، ودوريات الجيش البريطاني والشرطة، أشاعت هذه الأعمال القلق والذُعر في الأوساط الإنجليزية والصهيونية.

حالة تخبط:

احتار الانجليز واليهود، وأصابتهم حالة من التخبط، لعدم معرفة أصحاب هذه الأعمال ومن يقف خلفهم. ولم تقع معارك كبيرة مكشوفة بين القساميين والجيش، إذ اقتصرت أعمال المجاهدين على مهاجمة المستعمرات الصهيونية ودوريات الشرطة والجيش ثم الاختفاء، وهي من أساليب حرب العصابات.

وقد ألحقت هذه الأعمال خسائر كبيرة بالممتلكات والمزروعات الصهيونية، وأدت إلى قتل كثير من الإنجليز والصهيونيين. ووقعت مصادمات شديدة وواسعة بعض الشيء بين المجاهدين وقوات السلطة في كل من أم الزينات وفرادة وعرابة والبطوف، وبيت جن والناصرة وجبل الكرمل وبلد الشيخ ووادى الطبل بالكرمل وشعب ولوبية. وفى عام ١٩٣٣م هاجم عدد من المجاهدين مستعمرة «نهلال» الواقعة قرب الطريق الرئيسى بين حيفا والناصرة، وكان هجوما مركزا استعملت فيه القنابل والمتفجرات، مما ألحق بالمستعمرة خسائر كبيرة في الأرواح والأموال.

استشهاد البطل:

في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٣٥م وقعت المعركة الكبري بين القساميين والأعداء، وقد استمرت أربع ساعات، هلك خلالها عدد غير قليل من رجال السلطة، واستُشهد

من القساميين الشيخ «يوسف عبدالله»، و«أحمد الشيخ سعيد»، و«سعيد عطية أحمد»، و«أحمد مصلح الحسين»، وجرح عدد آخر، وبعد الظهر استؤنفت المعركة، فاستشهد «الشيخ عز الدين القسام» وجرح عدد من رجاله، بينما سقط عدد منهم أسرى بأيدي الإنجليز فنقلوهم إلى سجن نابلس. وقُتل من الجانب البريطاني أكثر من خمسة عشر.

استطاع عدد من القساميين اختراق الحصار والوصول إلى منطقة الشمال الفلسطينية، وهم يحملون جثة قائدهم الشهيد، إلى مدينة حيفا، اضطرب الرأي العام الفلسطيني لدى سماعة أنباء المعركة، واستشهاد «القسام» وأصاب الحادث فلسطين كلها بالألم والحزن، وخرجت الصحف تشيد بالشهداء وببطولاتهم وثباتهم في وجه الأعداء،وقد نُقل الشهداء إلى المدينة ملفوفين بالأعلام العربية.

هرَع إلى حيفا عدد كبير من زعماء البلاد للاشتراك في تشييع جثمان «القسام» ورفاقه الشهداء، وغصت المدينة بوفود حضرت من جميع أنحاء فلسطين، في حين قضى أهل حيفا ليلتهم بانتظار تشييع الجنازة وأعلنوا الإضراب العام فيها.

نُعى الشيخ «القسام» وصحبه من مآذن المسجد الأقصى ومساجد فلسطين، وصلى الناس عليهم في كل مكان صلاة الغائب، وحملت الجماهير نعش «القسام»، وصار موكب الجنازة مجللاً بالأعلام السورية والمصرية والعراقية والسعودية واليمنية.

ودُفن الشهيد في مقبرة الباجور قرب بلدة «الشيخ» التي تبعد ٧كم تقريبا عن حيفا واستغرقت مسيرة الجنازة نحو ٤ ساعات، وتحولت إلى مظاهرة عاصفة، وقعت خلالها عدة اصطدامات دامية بين الجماهير، وقوات الحكومة وجرح فيها كثيرون من الجانبين.

نيران الغضب:

ترك استشهاد «القسام» رد فعل عنيفاً في الأوساط الفلسطينية والعربية، فعمت

المظاهرات الصاخبة مدن فلسطين وقراها، نادى خلالها المتظاهرون بوجوب الثأر للشهداء، والالتجاء إلى القوة المسلحة لمحاربة الأعداء، وجرت في العواصم العربية مظاهرات ومهرجانات تحتفل «بالقسام» ورفاقه الشهداء.

وكان لحركة القسام واستشهاده أكبر الأثر في إشعال نيران العضب والثورة، وغدا الشعب برمته مؤمنا بوجوب النضال الفلسطيني المسلح.

obeikandl.com